رباعيات الخيام (لفيتزجيرالد)

بقلم الاستاذ

أحمد ابراهيم الشريف

أولا ـ العصر

« انجلترا فى القرن ١٩ »

كتب أحد المؤرخين الانجليز يقول : « فى بريطانيا ، فى سنة ١٩١٤ ، اذا ما قيست بسنة ١٨١٥ ، كان الناس أكثر عددا وأطول اعمارا وأحسن تغذية وملبسا ومسكنا ، وكانوا اصح أجساما وأوسع تعليما واحاطة بالأنباء واعمق اهتماما بالشئون الاجتماعية والدولية ، وكانوا أحسن حكما وأتم مرونة وأقرب الى النظرة العلمية ، وكانوا أتقن آلة وأكثر موردا لانتاج الثروة ، وكان حصولهم على كل طيبات الحياة الاجتماعية أتم وأشيع وأوسع نطاقا » .

وهو تقييم سليم ، ولم يكن السبب فيه الصدفة بقدر ما كان السبب هو الحظ السعيد الذى تهيأ للانجليز فى العصر الفيكتورى . والفارق بين الصدفة وبين الحظ السعيد فارق كبير . فقد تميز القرن التاسع عشر فى بريطانيا بالهدوء والسلم والاستقرار والايمان بالنفس والوطن والحياة .

فمنذ أن وضعت الحروب النابليونية أوزارها فى سنة ١٨١٥ ، استقرت البوتقة الانجليزية بينما تزايد الغليان وتصاعدت أبخرته من المرجل الأوربى الكبير ، فما ينفك فى حروب وثورات. كذلك ظلت ايطاليا فى صراع مرير من اجل الوحدة والاستقلال ، وقامت بالثورة تلو الثورة، والحركة تلو الحركة واشتهرت منها حركة الكاربونارى أو الفحامين ، وخاضت حروبا منها الداخلية ومنها الخارجية ، منها ما كان ضد النمسا ومنها ما كان ضد فرنسا ، حتى تمكنت اخر الأمر من الوحدة التى تنشدها عشية حرب السبعين (١٨٧٠) ، وأخذت بعد ذلك حتى نهاية القرن تواجه مشاكل ما بعد الوحدة والاستقلال .

ولم تكن حال المانيا خيرا من حال ايطاليا ، فقامت بالثورات والحركات ، وانتمت الى الأحزاب واصحاب الافكار الاصلاحية من «البروشنشافت» (حركة اتحادات الطلاب) الى البسماركية ، وأخيرا خاضت ثلاث حروب متوالية ضد الدنمرك والنمسا وفرنسا ، وهذه الأخيرة هى التى تسمى

حرب السبعين لأنها وقعت فى سنة ١٨٧٠ وهى التى بلغ من بعد أثرها وعمق مداها ما جعلها تعتبر بحق فاصلا بين عهدين من الحروب ومن العلاقات بين الدول والشعوب • وتمكنت المانيا بعد ذلك من الوحدة ولكنها دخلت فى فترة قاسية هى فترة المراهقة والشباب ، وهى الحالة التى أوقعتها فى خضم الحروب العالمية حتى عادت بعد أقل من ثلاثة أرباع القرن الى انقسام الوحدة الوطنية بفارق كبير ، ليس أكبر ما فيه أن بروسيا هى داعيته بعد أن كانت فى القرن الماضى داعية الوحدة والتوحيد •

ولئن كانت مخاضات هاتين الدولتين قد كللتا بالنجاح آخر الأمر ، فما كان النجاح حليف النمسا وفرنسا فى مخاضاتهما • فقد اندلعت الثورات فى النمسا بعد فترة القمع التى تزعمها « مترنخ » وانتهت المعارك والحروب ، وانتهت عند حرب السبعين بفقدان النمسا مستعمراتها فى شمال المانيا وشمال ايطاليا ، وبدأت المنحدر الذى انتهى بها بعد الحرب العالمية الأولى الى بلد بغير مستعمرات وبغير قوة ، حتى استولى عليها هتلر عشية الحرب الثانية التى انتهت وهى بغير مصلحة عالمية ولا نفوذ •

واندلعت الثورات كذلك فى فرنسا ، حتى استقر الأمر لدكتاتورية لويس نابليون بعد ثورات شتى منها الملكى ومنها الجمهورى ومنها الشيوعى أيضا فى سنة ١٨٤٧ ولم يستقر الأمر لفرنسا حين استقر لنابليون ـ شأن كل الطغاة ـ فخاض بها مغامرات وحروبا كالقرم والمكسيك ، واستقر به المطاف وبفرنسا الى هزيمة السبعين التى لم تفق منها الا فى سنة ١٩١٨ عند هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الثانية •

ومثل هذا يقال عن كل البلاد الأوربية والوثيقة الصلة بأوربا كتركيا ، سواء كانت من البلاد ذات الوزن والنفوذ أم كانت من البلاد غير ذات البال ـ يقال عن روسيا القيصرية التى اصبحت الثورة الفرنسية شبحا تخشاه فاتبعت وسائل فى القمع والارهاب تعد عندها من الفتوح فى هذا الباب ، ومع هذا لم تسلم من ثورة رقيق الأرض ومن حرب القرم الأولى والثانية والحرب التركية ، وحرب الشرق الأقصى وهزيمة بورت ارثر المشهورة ، وثورات الديمقراطيين والاشتراكيين ثم انهزامها فى الحرب العالمية الثانية وانهيار القيصرية وقيام الشيوعية فى عهد جديد •

ومثله يقال فى اسبانيا والبرتغال التى ما تزال تعانى منه الى يومنا هذا بين ملكيين وجمهوريين وبين يمينيين ويساريين وبين حربيين وقمعيين •

ومثله فى بلاد الوسط ومثله فى بلاد الشمال• الا بريطانيا •

ولم تندلع فى بريطانيا ثورة فى القرن التاسع عشر ، ولم يكن ذلك صدفة بل كان حسن حظ كما قلنا من قبل • فقد اقتنعت انجلترا بثورتها المجيدة فى سنة ١٦٨٨ ، ولم تدع الحال فى القرن الثامن عشر الى تغيير أوضاع الحكم لقلة التغير الذى طرأ على الناس فى ذلك الحين • فلما اهلت الثورة الأمريكية (سنة ١٧٧٥) ومن بعدها الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، كانت كل منهما فى موقف كأنه يدفع الانجليز دفعا الى عدم الايمان بمعطياتهما ، والى التوجس منهما والابتعاد عنهما جهد المستطاع • فالثورة الأمريكية كانت فى أساسها وفى أهدافها موجهة ضد الانجليز ، والثورة الفرنسية قد أتت بالسخافات والادعاءات

العريضة والفشل بعد الفشل مما ينفر منه كل ذى عقل عملى حصيف كعقل الانجليز • ثم توجت فرنسا سخافاتها حينما أسلمت قيادها لدكتاتورية نابليون الأول ، وهى التى ما قامت بالثورة بادىء ذى بدء الا للقضاء على الدكتاتورية والطغيان • وأصبح لا مناص من حديث الصدام المروع بين الانجليز وبين نابليون فى حرب دموية لا هوادة فيها ، فلما وقعت هذه الحرب ، وكانت قد وقعت فعلا قبل أن يتولى نابليون السلطة حينما كان جنرالا فى الجيش الفرنسى وحسب ـ قضت على كل فكرة أو عاطفة ربما تحوك فى صدر احد من الانجليز نحو الفرنسيين وثورتهم • ومن هنا خرج الانجليز من الحروب النابليونية وهم اتم ما يكونون رضا عن النفس واقتناعا بجدوى نظامهم فى الحكم ، وانصرفوا عن التفكير فى نظم الحكم والاصلاح الى الحياة وطيباتها الجنية المتاحة لهم دون سائر الأوربيين •

كذلك لم تخض بريطانيا حربا ذات بال طوال هذا القرن ، لأن منافسيها الأوربيين كانوا فى شغل عنها بأنفسهم ، وكانت هى فى شغل بتوسعاتها عن الحروب • وفى التوسع البريطانى ظاهرة عجيبة هى أن الجيوش البريطانية كانت دائما تنهزم ولكنها كانت دائما تحصل على نصيب المنتصرين • فهزمت أمام محمد على وهزمت فى حرب الأفيون فى الصين وهزمت فى القرم وهزمت فى الاسكندرية وكفر الدوار أمام احمد عرابى وفى كسلا والأبيض أمام الدراويش وأمام البوير فى جنوب أفريقيا، ومع كل هذا لم تتخذل بل كانت فى كل مرة من هذه المرات تخرج بنصيب المنتصرين • ويرجع هذا للصورة الاسطورية التى اكتسبها الاسطول البريطانى العتيد ، سيد البحار الذى لا يهزم ، والى استراتيجية ولنجتون التى تعتمد أساسا على الأسطول ولا تتوغل من الموانى الى داخلية البلاد •

غير أن كل هذه المخاضات لا تعدو كونها مناوشات أو حروبا صغيرة ، ولا يصح بحال ان تقاس الى الحروب النابليونية التى سبقتها أو الحرب السبعينية التى تخللتها أو الحرب العالمية التى تلتها فى التاريخ الحديث •

ومن هنا يصح أن يقال ان حسن الحظ هو الذى هيأ لبريطانيا قرنا كاملا من السلم والهدوء بريئا من الحروب والثورات ، يفيض فيه الخير والثراء وطيبات الحياة الدنيا ، ويتأيد فيه الزهو القومى بالانتصار تلو الانتصار ، حتى صار لقب هذه الجزيرة الصغيرة ما نعرفه جميعا باسم « الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس » ، كل ذلك من حيث شغل منافسوها الطبيعيون بحروبهم وثوراتهم المتكررة ، فأعفوها من حدة المنافسة فى التجارة وفى الاقتصاد وفى القوة العسكرية والتحرك السياسى على السواء •

فى هذا الجو الهادىء الوادع حدث الانقلاب الصناعى ، فكان له مع الليبرالية الفكتورية اكبر الأثر فى تشكيل حياة الانجليز فى القرن الماضى وأقرت فى أذهانهم فلسفة حياتهم فى الوقت نفسه •

صادفت نشأة الصناعة فترة من الحماية الطبيعية التى تغنى عن الحماية الجمركية ، هى حماية عدم وجود المنافس وفراغ السوق من الصراع واستقرار الاحتكار الفعلى الذى لم يتعبوا فيه، فظن الانجليز أن سياسة « الباب المفتوح » و « الحرية المطلقة » هى الحجر الأساسى فى الرخاء والفلسفة الصواب•

وبهذا تعاونت الليبرالية والثورة الصناعية فى انتاج فلسفة انجليزية مطلقة الحرية والفردية تمثلت فى جون ستيوارت مل وفى جلادستون وفى الشعراء الرومانتيكيين الذين بهروا الدنيا بلمعانهم وبريقهم الأخاذ الذى لم يجتمع مثله لغيرهم من الأمم •

ولا ينبغى لنا هنا أن ننسى العوامل الطبيعية الدائمة التى تؤثر فى هذه الجزيرة وسكانها • فالقنال الانجليزى مثلا كان حاجزا مناسبا بينها وبين أوربا لا يبعدها عنها بعد القطيعة ، ولا يقربها منها قرب الانغماس • فأفادها هذا وقاية من المتاعب والاضطرابات ، ولم يغلق أعينها ولا أوقر اسماعها عن مطالب الاصلاح • فلما لزم أن تصلح اداة الحكم فيها أصلحتها بالطريق البرلمانى السلمى فيما هو معروف باسم «قوانين الاصلاح الانتخابى»، وهى التى يعدها برتراند رسل مفخرة لجده جون رسل الذى حققها بهذه الكفاءة وهذا الهدوء •

كذلك أفادها الموقع أنه جعلها منبرا آمنا لأوربا كمنابر عصرنا الحاضر التى يحوطونها بالاسلاك الشائكة ، فلا تمنع اتصال الخطيب بسامعيه ، ولكنها تعصمه من أذاهم اذا أرادوا به الأذى ، فاتخذها منبرا رجال منها ورجال لجأوا اليها بينهم الفوارق ما بين كارل ماركس الألمانى الشيوعى وتوماس كارليل البريطانى الذى يعبد البطولة والتفرد •

وكان للتوازن المشهور فى عناصر سكان الجزيرة بين الزراع والصناع والتجار والمكتبيين دوره فى ألا تطغى فئة على سائر الفئات ، وان تتمكن ديمقراطية الحزبين من العمل والانتاج بكفاءة منقطعة النظير ، يظن أغلب المراقبين والخبراء أنها لا تتكرر فى زمان آخر أو مكان غير ذلك المكان• وها هى قد بدأت تتخاذل تحت وقرها فى بلاد الانجليز ، وها نحن نسمع صرخات المصلحين فيها تنادى وتستغيث كى ينقذ حياة البلاد النيابية من يستطيع انقاذها من طغيان الجهاز الحزبى الصارم الذى لا هوادة فيه •

كل هذه العوامل تضافرت على تكوين فلسفة حياة الانجليزيى القرن التاسع عشر خلاصتها الموجزة السريعة : « ما دامت الصناعة الوطنية لا تحتاج للحماية ضد الصناعات الأخرى فلا بد أن الفرد فى حياته الاقتصادية أيضا لا يحتاج للحماية ، وما دام الأسطول هو صاحب الكلمة العليا واليد الطولى فى أعالى البحار ، فلا بد أن البلاد لا تحتاج الى حماية سواه ، وما دامت السيتى (حى المال والأعمال بلندن) هى المسيطرة على المنظومة النقدية العالمية فلا بد أن العملة الوطنية والمالية الوطنية فى غير حاجة الى حماية أخرى • وبهذا الشكل وبهذه الكيفية لا تحتاج الحقيقة نفسها الى ضمان أصدق من دوام النقد الحر والنقاش الطليق • كذلك كانت حجة «ميل» فى كتابه « عن الحرية » ، وكذلك عبر عنها ممثل العصر اللورد بالمرستون رئيس الوزراء المشهور حين قال : « ان اصطناع الموازنة بين الآراء — الصدام بين الآراء — الاحتكاك بين آراء شخص وآراء شخص سواه ، هو الذى يظهر أى الرأيين أصلب وأقوى على الصمود لحرارة الاحتكاك ، وهو الذى يمكن الانسان ، فى داخل الوزارة او خارجها ، من أن يصل بأتم ما يكون الصواب الى معرفة ما هو أكثر نفعا للمجموع الكبير » (١) •

---

(١) انجلترا فى القرن ١٩ ص ٢٢٦ لدافيد ط. مسون

والخلاصة الأخيرة فى وصف هذا القرن الانجليزى المحظوظ أنه زمن كان يناسب انصار الحرية والفردية مناسبة الجراب للسيف أو القفاز لليد كما يقولون • فازدهرت الفردية فى اطار المصلحة الوطنية العليا ، وازدهرت الليبرالية حتى أنتجت لانجلترا فى قرنها هذا من العظمات والعظمات فوق نصيبها منهما فى عدة قرون •

ولا ينقضى الكلام عن هذا العصر بتقرير الفردية والحرية الليبرالية دون أن نشير الى الدفعة الى الشرق وسحر الشرق فى نفوس الانجليز • ذلك أن التوسع الاستعمارى كان يجد مجاله فى الشرق • وهناك أطلع المستعمرون الجدد على حضارات ومعتقدات جديدة بهرت أنظارهم ، فراحوا يغالون بها سواء ما استحق منها وما لم يستحق هذه الحماسة والمغالاة • وألهب ضم الهند للتاج البريطانى خيال الانجليز ، وأخذت بمجامع ألبابهم ليالى ألف ليلة ، ودخلوا فى حالة شعورية كحالة الواقع تحت خدر يرى الواقع فى السمادير ، وأصبح الشرق وسحره وأسراره وعقائده الخفية وروحانيته المدعاة شيئا يحرص عليه الغربيون حرصهم على قنية اقتنوها بالنفيس الغالى ، فاذا ما حاولت ان تبصرهم بخطأ ما هم فيه لووا رءوسهم وزووا أعينهم وانقلبوا معرضين •

هذا الأفيون الشرقى الجديد الذى ساعدت عليه دراسات المبشرين المستشرقين وبحوثهم فى طوايا المكتبات وخزائن الكتب هو الذى جعل لرباعيات الخيام كل هذا السحر فى أعين الانجليز • ولولا أنهم كانوا واقعين تحت خدر الشرق الساحر لنظروا اليها نظرة النقد الصحيح والتقييم السليم ، ولما عدوا بها طورها حتى خالجت وجدان الناس وانتظمت فى سحرها العالم الكبير والمدمن السكير •

وهكذا كتب الحظ لادوارد فيتزجيرالد ان يكون مترجم الرباعيات لقوم فتنوا بها قبل ان يعرفوها ، وصفقوا لها قبل أن يسمعوها ، وانه لحظ نادر وسعيد •

ثانيا ـ الرجل حياته وأعماله

عاش فيتزجيرالد حياة هادئة لا يكاد يعكر هدوءها شىء ، ولولا حادث واحد هو حادث زواجه ، لما كانت هناك حكمة من ذكر تفصيلات هذه الحياة الرتيبة أكثر من سنتى الميلاد والوفاة • الا أن هذا الهدوء العميق والرتابة التى تقرب من الملل قد كانت تنطوى فيما يبدو على نفس متوفزة ناشز لا تتوافق مع حياة سائر الناس ولا تتناغم مع أفراد المجتمع المحيط به • ولقد عبر ادوارد فيتزجيرالد نفسه عن هذه الخاصة فى عشيرته فقال فى صدد تصرفات أخيه الأكبر « نحن ال فيتزجيرالد جميعا مجانين ، الا أن جون اشدنا جنونا لأنه لا يحس بالجنون » • ولقد اطلق ادوارد هذه العبارة تعليقا على تصرفات اخيه الشاذة ، وهى تصرفات تدل على وراثة النشوز والاختلاف عن طبائع الناس • فقد كان جون ، بعد أن ورث ثروة أبيه ، مهووسا أصيب بنوع من الهوس الدينى ، راح بسببه يذرع البلاد طولا وعرضا ، ويعظ الناس حيثما وجد مستمعا ، ويستمع حيثما وجد واعظا ثم يفرغ محتويات جيوبه ويخلع حذاءه وجوربه وتستولى عليه حالة شبيهة بالحالة التى نعهدها فى الدراويش والمتدروشين ويسمونها «الشربة»

ولم يكن أخوه بدعا فى عشيرته ، فقد كان أبوعلى شىء من هذا الشذوذ ـ كان اسمه جون بورسيل ،

وكان مسيور الحال وتزوج من ماري فرانسز فتيز جيرالد ، وهى من أسرة ميسورة الحال أيضا ، فاكتسبت بالزواج اسم زوجها واصبحت تدعى « بورسيل » كما هو العرف عند الانجليز ، فلما مات أبوها تاركا لها ثروته الكبيرة كلها تراءى لزوجها أن قد أصبح من حق أبيها عليه أن يخلع اسمه الأصلى وأن يتسمى باسم (فيتزجيرالد) تكريما لهذا المورث الكريم ، ومن هنا جاءت التسمية المعروفة لشاعرنا • وهى حادثة بسيطة ، ولكنها على بساطتها تدل على غرابة الأطوار •

وحادث زواج ادوارد نفسه دليل اخر على هذه الغرابة ، ولعله أغربها جميعا ، كان قد استقر فى قرية « وود بردج » التى اختارها لاقامته الدائمة، وتعرف هناك الى رجل يقال له « برنارد بارتون » كان شاعرا وكان يعمل فى احد البنوك بالقرية وينتمى الى الكويكرز وتوطدت الصداقة بينهما بالرغم من فارق السن الذى يبلغ نحوا من خمس وعشرين سنة • وكانت لهذا الشاعر بنت وحيدة تقدم بها السن حتى أصبحت لا أمل لها فى الزواج لقبحها من ناحية ولفقرها من ناحية ثانية ولتقدمها فى السن اذ كانت عند موت أبيها فى الحادية والأربعين تكبر ادوارد ببضعة شعور . وفى نوبة من نوبات الشهامة وهو الى جوار فراش صديقه الذى مات فيه ، تعهد ادوارد بأن يرعى ابنته ، فباركهما أبوها واضعا يده فوق يديهما وكان ظاهرا أن فتيز جيرالد لم يكن يعنى أكثر من أن يحسن للفتاة دخلها باضافة مبلغ من المال من جيبه الخاص، ولكن الفتاة رفضت هذه المنحة التى ابتها عليها كرامتها فلم يكن من فتيز جيرالد ، الذى ظل يحس بتأنيب الضمير لعدم تنفيذه تعهده لصديقه الراحل سبع سنين ، الا أن تزوج منها فى نوفمبر سنة ١٨٥٦ ، حينما كانا كلاهما فى الثامنة والأربعين من العمر ، ولم يكن فى محيط معارفهما كله شخص واحد يوافق على الزواج الغريب الا هما ، وحتى هما قد تفتحت اعينهما بعد قليل على أن هذا المشروع سخيف ولا بد ان ينتهى فأنهياه بعد عام واحد او دون العام بقليل•

فيما عدا هذا الحادث الغريب ، لم يكن فى حياة فيتزجيرالد الا الرتابة والهدوء •

ولد فى مارس ١٨٠٩ ، سابع ثمانية ابناء لأبويه ، ثلاثة منهم ذكور وبقيتهم أناث ، وكانت ولادته فى بردفيلد هوس الذى يتوسط حديقة من خمسة وستين فدانا قريبة من وود بردج فى مقاطعة سفولك وكان أبوه كما سبق القول ميسور الحال وكانت أمه كذلك ، وكانا يوسعان على أنفسهما وآلهما فكان لهما بيت فى لندن واربع اقطاعيات فى الريف ، وكان من حظ ادوارد ان ذهب فى رحلة لمدة سنتين فى ربوع فرنسا وهو بعد غلام صغير •

وفى سن الثانية عشرة أرسل ادوارد الىمدرسة الملك ادوارد السادس الثانوية ، فلما أتم سبع عشرة سنة ألحق بالترينتى كوليج فى جامعة كامبردج ـ حيث قضى فيها أربع سنوات تخرج منها فى نهايتها بدرجة متوسطة ـ ويقول عنه زملاؤه فى كامبردج أنه كان لطيف المعشر محبا للجليس وللصديق ، ولكنه كان موفور الدخل وفرة لا تتيسر لكل الطلبة ، ولذلك كان يتميز « بذوق النبلاء ، ومنهج العلماء وعادات البوهيميين » ، وكان فرديا موغلا فى الفردية الى درجة لا تسمح له بأن يراعى مقتضياتالاحترام، ومع ذلك فقد كان متمسكا بدرجة من التانق

والترفع تعصمه من تبذل كتبذل زملائه الطلاب. وقد صوره أحد معارفه فى كامبردج بقوله « لما كان مكفول المعيشة فقد غدا بغيرهم وبغير هدف وبغير طموح » . وكان واسع القراءة واسع الاطلاع ، ولكن قراءته لم تكن من النوع المنظم الذى يهدف صاحبه الى موضوع معين شان الدارسين والبحاثين ، بل كان يتنقل بين القراءات حسب هواه ، لا يستقر على موضوع ولا على مؤلف ، كالفراشة تقع على كل الزهور ، وتطير عنها قبل استنفاد رحيقها ، همها الوحيد ان تحصل على رحيق أى رحيق . وكما كان يتنقل فى القراءة كان يتنقل فى الهوايات ، فكتب الشعر وكتب النثر والقصة وسجل الخاطرة والحكمة الابدة ورسم بالماء وارتحل بين الآثار وفى البلاد ، وكثيرا لا قليلا ما قضى وقته فى مجرد الكسل والبطالة والخمول .

على أننا ينبغى أن نذكر انه تعرف فى كامبردج بأحسن طائفة من خريجى هذه الجامعة العظيمة ، ممن تولوا قيادة الآداب والفنون فى جيلهم ، فقد عقدت الصداقة بينه وبين اكثر من واحد منهم برباط دائم من المحبة والاحترام ، نذكر منهم ثاكرى وموريس وجون كيمبل وجيمس سبونج وألفريد تنيسون الذى قال عنه يوما : « اننى كلما ازددت معرفة بتنيسون ازددت اقتناعا بانه عظيم » .

فاذا انقضت سنوات كامبردج الخصبة البراقة، فقد انقضى كل شىء يستحق الذكر ، اذ لم يسبق فى هذه الحياة ما يصح أن يروى ، فلا هو التحق بوظيفة ولا اشتغل بالسياسة او الاصلاح او حتى التعليم ، وانما اكتفى بالعيش لنفسه ولرحلاته وأصدقائه الذين كانوا يحبونه ويستعذبون حديثه ولقراءاته التى جعلته يقول فى خطاب الى فردريك تنيسون ـ الاخ الأكبر لألفريد وكان شاعرا مثله « هأنذا أجلس ها هنا اقرأ وأدخن وأغدو غاية فى الحكمة ، ولقد أصبحت فعلا فيما وراء الحاجات الأرضية الدنيوية » . ولا يكاد يحرك سطح هذه الحياة الا حادث زواجه الذى ذكرناه ، والا زيارة العظماء له من أمثال كارلايل والفريد تنيسون ، وهى زيارات تلفت النظر الى عناية العظماء ، برجل لم يعتن به عامة الناس . حتى الموت كان هادئا ، اذ زاره فى نومه فى اليوم الرابع عشر من يونيو ۱۸۸۳ وقد تجاوز السنة الرابعة والسبعين ببضعة شهور .

أعماله :

فاذا ماظننا أن سبب عناية كبار الأدباء والشعراء والمفكرين بهذا الأديب المغمور كان سببا ادبيا كذبتنا الوقائع، ذلك أن كتابيه الأولين: «يوفرانور» و « بولونيوس » لم يلقيا ما يستحقانه من عناية النقاد والقراء . أما أولهما فهو محاورة على النسق الافلاطونى يحكى فيهما تجاربه وآراءه فى نظام التعليم الانجليزى عندما كان طالبا بالجامعة. ولئن كان قد تعمد اخفاء شخصياته تحت اسماء كلاسيكية مستعارة ، الا أنها شفافة تنم عما تحتها من شخصيات معروفة . وأما ثانيهما «بولونيوس» فهو مجموعة من الحكم والحكايات والأوابد تدل على سعة اطلاعه وعلى اهتمامه بالأدب الفارسى ونقله عن المثنوى .

ولم تكن كتبه التالية أسعد حظا من هذين بل لعلها أسوأ حظا منهما ، فحينما نشر ترجمته لبعض المسرحيات الاسبانية القديمة قوبلت الترجمة بالجحود الذى جعله ينفر من وضع اسمه على اى كتاب يظهر له . وهذه الكتب هى :

١ - يوفرانور سنة ١٨٥١ .

٢ - بولونيوس سنة ١٨٥٢

٣ - ست مسرحيات عن كالديرون ١٨٥٣

٤ - سلامان وأبصال (قصة اسطورية صوفية عن الأدب الفارسي) ١٨٥٦

٥ - أجاممنون (لأيسكيلوس) ١٨٧٦ .

٦ - قراءات في أدب كراب ١٨٧٩ ثم نشرت على نطاق واسع سنة ١٨٨٢ .

ثالثا - المحظوظان يلتقيان

« الرباعيات وترجمتها »

اشتهر الخيام - شاعر الرباعيات الفارسي - أعجب شهرة في تاريخ الآداب الاسلامية في العصر الوسيط . فقد كان من حقه ان يشتهر بالعلم والرياضة والفلك ، ومع ذلك لا يكاد يعرفه بهذه الأوصاف الا المتخصصون في دراسة تاريخ العلوم، وكان ثالث ثلاثة من أعيان سياسة عصره ، احدهم نظام الملك الوزير الأكبر، والثاني الصباح صاحب قلعة الجبل، فكان من حقه لهذا السبب أن يحسب في أعيان عصره ورجالات السياسة في ايامه ، ومع ذلك لم يعرفه هذه المعرفة الا المتخصصون في تواريخ الأمم والحركات السرية في الاسلام. وعرفوه حينما عرفوه بالشعر ، وشعر الرباعيات على وجه الخصوص مع قلة قيمة هذه الرباعيات من حيث الشكل ومن حيث المضمون ومن حيث الموقف الاخلاقي الذي تعبر عنه .

فمن الناحية الشكلية لم تأت الرباعيات بجديد ، ولم تحل مشكلة القديم . ولست على علم باللغة الفارسية ، لغة الرباعيات الأصلية ، ولست اعلم كيف كان شكل الرباعية عند صاحبها الأصلي ، ولكن ترجمة الأستاذ رامي للرباعيات عن الفارسية، وترجمة المازني (١) لها عن الانجليزية لم تجيئا بها رباعيات بل جاءنا بها ثنائيات ، تصاغ الخاطرة منها في بيتين اثنين ، أولهما مصرع والثاني طليق العروض (المصراع الأول) مقيد القافية (نهاية البيت) وهو نمط مسبوق في الشعر العربي والشعر الفارسي ولا يحل أزمة ولا يقضي على مشكلة ولا يبدع شيئا جديدا وهذا قصاراه .

ومن ناحية مضمون الرباعيات لا نراها تستحق كل ما لقيت من عناية وشهرة واعجاب . بل ان ما فيها ليلح على الذهن بخاطر مريب هو ان مؤلفها لا يمكن أن يكون شخصا واحدا ذا فكر ونفس ووجدان متسق . فهي تارة سطحية تواجهنا بكلام ككلام رواد الحانات المدمنين . (٢)

اذا سقاني الموت كأس الحمام
وضمكم بعدي مجال المدام

فأفردوا لي موضعي واشربوا
في ذكر من أضحى رهين الرجام

***

ليتك يا ربي تبيد الوجود
وتخلق الأكوان خلقا جديد

فتغفل اسمي أو تزيد الذي
قدرت لي في الرزق بين العبيد

وتارة أخرى هي في عمق أبلغ وأعمق من عمق « هاملت » ازاء المقبرة :

رأيت خزافا رحاه تدور
بجد في صوغ دنان الخمور

---

(١) أنظر رباعيات الخيام لأحمد رامي وحصاد الهشيم لابراهيم عبد القادر المازني .

(٢) من ترجمة الأستاذ أحمد رامي عن الفارسية

كأنه يخـــلط فى طينهـــــا
جمجمة الشاه بســـاق الخفير

وتطالعك أحيانا بكل ما فى الحيرة والريب من اضطراب وفوران :

أطال أهل الأنفس البـاصرة
تفكيرهم فى ذاتك القـادرة
ولم تزل يـا رب أفهـــامهم
حيرى كهذى الأنجم الحائرة

***

يا رب فى فهمك حـار البشر
وقصر العـــاجز والمقتـــدر
انبعث نجـواك وتبـدو لهم
وهم بلا ســمع يعى أو بصر

وأحيانا أخـرى تطالعك ببرد اليقين وبايمـان كايمان العجائز فى محاريبها :

قلبى فى صـدرى أسير سجين
تخجـله عشرة مـاء وطين
وكم جـرى عزمى بتحطيمـه
فكان ينهـــانى نداء اليقـين

***

زخـارف الدنيـا أسـاس الألم
وطالب الدنيـا نديم النـــدم
فكن خلى البـــال من أمرها
فكل ما فيهـا شـــقاء وهم

وطورا ترى صاحبها لا يعلم للحياة معنى الا مع الصحاب ويوجب على الانســـان أن يتساهل مع أصحابه ليستبقى ودهم فما بغيرهم تحلو الحياة :

أحسن الى الاعـــداء والأصـدقاء
فانما أنس القـلوب الصـــفاء
وأغفـــر لأصحـــابك زلاتهم
وسامح الأعداء تمح العـــداء

وطـورا تراه ينصح النـاس كلهم بأن يغلقوا أبوابهم ويرتهنوا محابسهم :

وأسعد الناس : قليل الفضـول
من يهجر الناس ويرضى القليـل
كأنه العنقـــاء عند السـها
لا بومـة تنعب بين الطلـول

***

ان الذى تأنس فيه الوفـــاء
لا يحفظ الود وعهد الاخـــاء
فعـاشر النـاس على ريبـــة
منهـم ولا تكثـر من الأصـــدقاء

***

ولو مضينا فى هذا الباب لما وجـدنا له اخرا ننتهى اليه ، فهو كثير كثير ، وحسبنا أن الرباعيات الخيامية ليست هى موضوعنا المباشر فى هذا المقال•

ومن الناحيـة الاخلاقية لا تستحق الرباعيـات بعض ما لقيت ، فليست هى موقفا واحدا مفهوما ازاء الكون والحياة أو ازاء النـاس والأنظمة او ازاء أى شىء كان • ولقد تسبب هذا النقص فى تضليل الكثير من النقاد الذين اعجبوا بالخيام اولا ثم عرضوه على النقد فراحوا يتلمسون له الاسباب والتعلات ، فقال قوم انه ابيقورى ، مع ان ابيقور نفسه ، الابيقورية عامة لا تتصل بالخيامية بصلة ولا بشـبهة من صـلة ، اللهم الا أن الأبيقورية تنصح باللذة التى لا تعقب ألما ، وأن الغالبية من الناس تعتقد الخمر التى ينصح بها الخيام نوعا من اللذات • وليس فى الأبيقـورية حيرة الخيـامية ،

وليس فيها عجز التفكير واللجوء الى مرفا الخمر نجاة من عباب خضم التفكير ، واذا كان ابيقور يؤمن بالارادة الكلية للكون والحياة ، فان الخيام لا يؤمن الا بالموت واللحظة الراهنة • واذا كان ابيقور يوازن بين اللذة والألم ويجعل الخير والشر حصيلة حساب هذه الميزانية ، فان الخيام لا يريد الا الغيبوبة عن كل وعى وكل حساب •

كذلك ضل قوم فى الخيام فقرنوه بابى نواس، وأبو نواس ظاهرة نفسية وظاهرة اجتماعيه وظاهرة سياسية وظاهرة ادبية تستحق الدراسة فى كل جانب من هذه الجوانب ، اما الخيام فان أحدا لا يهتم به الا اذا نسى عصره السياسى وزمنه العلمى والا اذا أخذ رباعياته ونسيه هو •• كذلك من فضول العبث أن يقارن بالمعرى فى موقفه من الموت والحياة ، وكل ما فى شعر الخيام التفاتة الى معنى أو معنيين من معانى المعرى ، نكتفى بوصفهما بالالتفات ولا نقول السرقة وذلك مثل قوله :

لو أننى خـيرت أو كان لى
مفتاح باب القـدر المقفـل

لأخترت عن دنيا الأسى أننى
لم أهبط الدنيـا ولم أرحـل

وهو التفات الى قول المعرى المشهور ، علىفرق ما بين عظمة الفلسفة وعمقها وبين أمانى البطالة والفراغ وسمادير الشراب وذلك حيث يقول المعرى مخاطبا ربه :

حـكم الزمـان مفـرق الالفين
فاحـكم الهى بين ذاك وبينى

أنهيت عن قتـل النفوس تعمـدا
وبعثت أنت لقتلهـا ملكـين

وزعمت ان لهـا معـادا ثانيـا ؟!
ما كان أغنـاها عن الحـالين

وخلاصة الأمر ان الخيامية ليست فتحا فىالادب شكله أو مضمونه ، ولا هى موقف اخلاقى عظيم يراد لذاته ومع ذلك افتتن بها الناس • فلماذا ؟!

لأنها ظاهرة أو عرض لمرض اجتماعى دفين •

فقـد كان عصر الخيام عصر الحيرة والريبة وانتفاء اليقين ، وكان عصر النكسه والثـورة والافتتان ، وكان عصر طغيان لاحـداث وطغيان لحكام •

واود هنا ان ابين الفارق بين طغيان الحاكم وطغيان الاحـداث ، فقد كانت الدول فى ذلك الحين شتاتا لا تستطيع أن تطغى او تصول باحد ، لأنها أضعف من كل طغيان وصيال • ولكن الانسان لا يأمن فيها على نفسه من انقلاب او دسيسة أو غزو من هنا او هنـاك ، ففى كل يوم شىء جديد ، ولا مسكة لاحد يستمسك بها ويشعر عندها بعصمة الاعتصام • الدين او هى من أن يزع حاكما ، والعلم أدنأ من أن يكون له مقام أو مقدار ، والنفاق نفسه غير مأمون ، لأن حاكم اليوم ربما صار سجين الغد ، وصار عدوه طاغية الغد ينتقم ممن سبوه نفاقا عند سالفه ، فلم يبق للانسان من قيمة ها هنا الا احدى قيمتين : اللذة أو المال •

فى هذا الميدان يكون شعر كشعر الخيام ــ بالرغم من كل ما فيه من نقص وقصور ــ هو طابع العصر المحبوب ، وحبه والافتتان به هما فى ذاتهما دليل المرض الذى أصاب العصر والناس•

لهذا قلنا انه رجل محظوظ : حائر صادف عصره •

والتقى بهذا المخطوط الشرقى محظوظ غربى على بعد ما بين الرجلين فى الزمان والمكان والحضارة والمشارب والآراء •

ولقد قدمنا القول فى خصائص بريطانيا فى القرن التاسع عشر ، وهى خصائص تدفع الى الافتتان بالشرق وسحره ، وتدفع الى العناية بالشرق من حيث هو مستعمرات محتملة ومندوحة واسعة « للجينجويزم » أو سياسة التوسع التى سادت الانجليز فى القرن الماضى ، ومن حيث هى بلاد جديدة للمبشرين ودارسى علوم الاجتماع ، ولا يفوتنا ان علم الاجتماع كان فى القرن الماضى ذا بريق لأنه علم جديد ، وقد افتتن الناس به وبمكتشفاته فى الشعوب البدائية والقبائل المتخلفة، وفى الحضارات الدارسة والعقائد القديمة ، حتى وجد من المتحمسين لهذا العلم من لا يحب ان يفسر ظواهر الاجتماع الانسانى الا تفسيرا اجتماعيا ويرفض للظاهرة الاجتماعية كل تفسير سواه ، حتى الاجتماع نفسه ، او ذلك الدافع الذى يحيك فى نفس الأدمى فيدفعه الى الاجتماع بغيره من الآدميين ، ويحسن له أن يتنازل عن بعض ما يتمتع به غيره من الحيوانات مقابل هذا الارتباط بالغير ، حتى هذه الظاهرة التى تسبق الاجتماع وتعد الأساس الأول له ، لا يحبون ان يفسروها تفسيرا نفسيا أو عقيديا دينيا أو فلسفيا أو كائنا ما كان التفسير ، وهى افتتان معهود بالعلوم المستحدثة التى تنجح بعض انجاح اللماع ذى البريق •

كل هذا وغير هذا جعل الانجليز خاصة والغربيين عامة يفتتنون بالشرق وأدبه وتراثه وحضارته وعقائده ، ومنها رباعيات الخيام •

هذا جانب من الحظ •

وجانب آخر هو أن فيتزجيرالد لم يقدم لقرائه الرباعيات التى ألفها عمر الخيام الفارسى ، بل قدم اليهم رباعيات لها اسم الشاعر الفارسى وفيها حرارة الشرق وأسراره وفيها بخوره وعطوره واخيلته وتشبيهاته ، ولكنها مقترنة فى الوقت نفسه بنكهة غربية ولذعة انجليزية ولسعة سفولكية تحببها اذ تقربها لنفوس القراء الغربيين •

كان فيتزجيرالد يفعل بالرباعيات ما يسميه أصحاب الجشتالت باسم اكمال الشكل او الصورة، فلا يتورع عن تأليف رباعية أو ابيات أو حتى مجموعة رباعيات ليحمل النص الى معنى عميق وليذهب به مذاهب تستحق عناء القراءة والاطلاع•

وكان لا يتورع عن حذف ما لا يليق أن ينسب الى شاعر محترم وقور وفيلسوف يفكر فى الموت والحياة وطبائع الأحياء •

وكان يغير ويبدل ، وينقح الفكرة والمعنى المتكامل وينقح الأسلوب ويهذبه ويعدل عنه ، وقد ظل طوال حياته منذ ترجمها أول ترجمة وهو يعود اليها بالتنقيح والتهذيب ، بغية الوصول الى طلاوة اللفظ وحلاوة الأسلوب واتساق المعانى والأفكار ، مما قد يجوز القليل منه للمترجم ولكنه قطعا لا يجوز كله لا لمترجم ولا حتى للملخص المستعرض •

خذ لذلك مثلا رباعية الافتتاح التى ترجمها احمد رامى هكذا :

سمعت صوتا هاتفا فى السحر
نادى من الحان غفاة البشر

هبوا املأو كأس الطلى قبل أن
تفعم كأس العمر كف القدر

ترجمها فيتزجيرالد فى الطبعة الأولى فقال (١) :

قم ، فان الصبح فى الليل البهيم
قد رمى الصخر الذى ينضى النجوم
ايه ! هذا صائد الشرق طوى
شرفة السلطان فى النور العميم
كنت فى رؤيا ويسرى الفجر تلو
اذ أتانى صائح فى الحان يغلو
« أيها الأطفال : هيا ! كأسكم
ان كأس العيش لا بد سيخلو

من هذا وحده يظهر أنه جعل من الرباعية الواحدة رباعيتين ، وأضاف اليهما من عنده هذا الفيض الغامر من الأفكار والخيالات ، فليس فى الأصل شىء عن شرفة السلطان أو مئذنته ، وليس فيه شىء عن صائد شرقى بيده صخر يقذف به فينضى النجوم ويبعثرها ، ثم يطوق شرفة السلطان بخاتم من ضياء ، وليس فى الأصل أن الفجر له ذراعان يمنى ويسرى ولا أنه حينما يعلو انما يعلو بيسراه دون يمناه ، كما أن الأصل عبر عن انتهاء الحياة بملء كأس العمر بينما عبر عنها فيتزجيرالد بجفاف كأس العيش وخلوها بعد امتلاء •

ولم يكتف فيتزجيرالد ، ولكنه عاد على رباعيتيه هاتين بالتنقيح ، فجعلهما فى الطبعة الثانية :

قم ، فان الشمس من خلف الشروق
تطرد النجم عن الليل العميق
ثم تصلى وهى ترقى فى السما
شرفة السلطان سهما ذا بريق
حين ولى شبح الفجر الكذوب
خلت صوتا من لدى الحان يهيب :

(١) الترجمة والنظم لكاتب المقال

« ذلك المعبد طرا جاهز
فلماذا النأى عنه والهروب ؟ »

مدخلا بذلك عليهما من الأفكار والخيالات والتشبيهات مايكاد يخرجهما عن صورتهما الاولى ، فما أبقى من قدر مشترك بين الصورتين الا صورة الصباح الباكر يطرد الليل وأنجمه ، والا صوت المنادى من داخل الحانة يهيب بالسكارى ان يبادروا الصبوح •

فلما كانت الطبعة الخامسة ، استقرت هاتان الرباعيتان على صورتهما النهائية ، وهما ما استقرتا الا لأن مترجمهما قد مات وانتهى من كل عناء الحياة ، فصارتا :

قم ، فان الشمس قد جاءت تثير
أنجم الأفق عن الليل الكفور
واستبدت بالدجى ، ثم رمت
شرفة السلطان بالسهم المنير

***

حين ولى شبح الفجر الكذوب
خلت صوتا من لدى الحان يهيب :
« ذلك المعبد طرا جاهز ،
فلماذا النوم عنه والهروب ؟ »

يقول المازنى فى كتابه « حصاد الهشيم » : « يخيل الينا أن فيتزجيرالد عمد الى الرباعيات المتشابهة فصاغ منها واحدة استغنى بها عن الترديد والتكرار » • ثم يورد المازنى أمثلة مقارنة بين رباعيات فيتزجيرالد وبين رباعيات الخيام التى ترجمها عن الفارسية نثرا الأستاذ الصراف ، وشعرا الأستاذ احمد رامى •

وقول المازنى حق ، ولكنه ليس كل الحق ،

فقد حذف فيتزجيرالد وأضاف ونقح ونمق وأخرج للانجليز شخصية جديدة لم يعرفها التاريخ من قبله ، تدعى هى أيضا « عمر الخيام »، وهى أيضا كانت شخصية شاعر فارسى يصوغ فلسفة الحيرة والشك واللجوء الى الخمر لاستحداث الغيبوبة عن الوعى الأليم ، فى رباعيات انجليزية الصياغة والأسلوب ، فارسية الخيال والتشبيه ، اسلامية الثقافة والتصوف ، وسيطية الحيرة والاضطراب وضحالة الايمان •

هذه الرباعيات هى التى صادفت انجليز القرن التاسع عشر الوادعين فى خدر الرخاء والسلم والهدوء ، المستنيمين للعصر الفكتورى وتفاؤله المألوف ، فكانت لهم فاكهة شهية ، ومنظرا عجبا ، كمنظر الأسد الحبيس فى أعين الأطفال اللاعبين، يقبلون عليه مشغوفين ، ويخافونه امنين ، ويتصايحون هلعا منه ولكن ضاحكين ، فكان هذا من توفيقات القدر وحسن حظ هذا الشاعر الانجليزى المغمور الذى فاضت بعد ذلك شهرته حتى طغت على شهرة الكبار الخالدين •

ولهذا قلنا أنه التقاء بين محظوظين ، محظوظ شرقى قديم أعيد على الورق خلقه فى صورة أدبية جديدة ، ومحظوظ غربى حديث هو الذى أعاد هذا الخلق فلم يؤاخذ على ذنب الاختلاق بل حسب له هذا الذنب فى الصالحات واشتهر به ومن أجله ، فلله كيف تفعل الحظوظ بالآدميين•

رابعا ـ الرباعيات الانجليزية

ظل فتيزجيرالد طول عمره الأدبى مشغولا بترجمة الرباعيات ، وما فتىء يعود اليها بين الحين والحين ويدخل عليها التعديل تلو التعديل ، وقد ألممنا بهذا فى الجزء السابق من المقال متمثلين فيه برباعيتى الافتتاح •

وأما ها هنا فانى اكتفى بايراد تاريخ وجيز للترجمة الانجليزية للرباعيات :

نشرت من الرباعيات خمس طبعات : اربع منها فى حياة مترجمها وواحدة نشرها أصدقاؤه بعد موته : ولم يصرح مترجمها باسمه على أى واحدة من التى نشرهن فى حياته حسب خطته التى اختطها منذ أن باركتا به الذى وضع عليه اسمه ، وهو « ست مسرحيات عن كالديرون » بألا يعترف بأبوته لأى كتاب ، فأغفل ذكر المترجم على غلاف الرباعيات وأن ذكر اسم المؤلف هكذا : « رباعيات الخيام الشاعر الفلكى الفارسى مترجمة فى شعر انجليزى » •

ظهرت الطبعة الأولى فى سنة **١٨٥٩** وكانت عدة الرباعيات فيها خمسا وسبعين رباعية •

وظهرت الطبعة الثانية فى سنة **١٨٦٨** ، وفيها ارتفع عدد الرباعيات الى مائة وعشر •

وظهرت الطبعة الثالثة فى سنة **١٨٧٢** ، ثم الرابعة فى سنة **١٨٧٩** ، بغير تنقيح كبير او اختلاف ظاهر يستحق الذكر فيما بينهما ، وكانت عدة الرباعيات فيهما مائة وواحدة •

وبعد موت فيتزجيرالد فى سنة **١٨٨٣** عثر أصدقاؤه على نسخة من الطبعة الرابعة اجرى عليها الشاعر بقلمه بعض التنقيحات والتغيرات فنشروها باسم الطبعة الخامسة (والأخيرة) فى سنة **١٨٨٩** وذلك ضمن الكتاب الذى اسموه « رسائل ادوارد فيتزجيرالد ومخلفاته الأدبية »•

وكانت عدة الرباعيات فيها أيضا مائة رباعية ورباعية .

ولم تلق الرباعيات يوم ظهورها ولا في طول حياة مترجمها أي نجاح مذكور ، ولم يلتفت اليها الناس ، حتى تدهور سعر النسخة منها الى بنس واحد (نحو من خمسة مليمات او دونها بقليل)

وفي سنة **١٨٨٥** أهدى الشاعر العبقري الفريد تنيسون ديوانه « تيريزياس وقصائد اخرى » الى ذكرى فيتزجيرالد . هنالك التفت القراء والنقاد الى هذا الشاعر المغمور والى رباعياته المترجمة ، فكأنما عثروا على كنز مفقود ، وراحت نسخ الطبعة الأولى التي نفدت ترتفع قيمتها في اسواق التحف والنوادر حتى بيعت في سنة **١٩٢٩** في انجلترا بألف واربعمائة وعشرة جنيهات استرلينية وفي أمريكا بثمانية آلاف دولار . وأعجب للحظ مرة أخرى ، يتعب فيتزجيرالد ليستفيد ناشروه .

وكما ارتفع ثمنها ارتفعت قيمتها الأدبية ، وبعد أن كانت كما مهملا محسوبا من سقط المتاع في أثناء حياة مترجمها ، ارتفعت حتى أصبحت الدرر من الكلاسيكية المعدودة في الأدب الانجليزي ، وحتى أصبحت عنوانا على مذهب من مذاهب الاخلاق وموقفا من مواقف الحياة ازاء الكون والحياة ، وحتى أصبحت يستشهد بها العلماء في علومهم فضلا عن الأدباء كالذي فعله السير آرثر ادنجتون في كتابه « طبيعة العالم الفيزيقي » في الفصل الخاص « بالسببية » حين استشهد بالرباعية التي تقول :

« صبح يوم الخلق قد خطت يداك
ما سيتلى في دجى فجر الحساب »

متمثلا بها على موقف العلماء والفلاسفة الذين يؤمنون بالحتمية في القانون العلمي وفي طبائع الأشياء .

خامسا ـ خيام الرباعيات

ولم يكن نجاحها هذا بعد اخفاقها الأول راجعا الى الحظ وحده ، فالحقيقة أن فيتزجيرالد ، بما أضاف وبما حذف وبما غير وعدل فيها ، قد عرض علينا خياما يستحق أن يعرف وأن يدرس ، على خلاف خيام الواقع القديم الذي كان ذا شخصية مضطربة حسبما بينا في صدر هذا المقال .

كان خيام الرباعيات يؤمن بالله وبوجوده الدائم الأزلي الأبدي ، ولكن ايمانه ليس كايمان « الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ومما رزقناهم ينفقون » ، وانما هو ايمان من نوع آخر ، هو ايمان من يبحث عن تعلة وتبرير لنقصه وقصوره وفشله واخفاقه فيلقي بذنبه على الكائن الذي يؤمن بربانيته ، وهو ايمان من لم يطق ضميره رؤية الشر ، ولم يطق عقله تفسير الشر في الوجود في مذهب فلسفي أو عقيدي ، فراح ينحي باللائمة على من اوجد الوجود بخيره وشره جميعا .

يقول الخيام الذي خلقه فيتزجيرالد في احدى رباعياته :

كنت يوما حسب ذكراي أزور
صاحب الطين الذي يدحو القدور
واذا قدر ينادي هامسا :
« آه ! رفقا يا ابن أمي بالأسير

***

أو ليست هذه الرؤيا العريقة
قد أتتنا عبر أجيال سحيقة

بضعة شوهاء من صلصالها
صاغها البارى على سيما الخليقة

***

فهو اذن يؤمن بالصانع البارى ، ويؤمن بالخلق الذى خلقه ، وكان ينبغى له أن يخشع له ويتقيه، وأن يؤمن بثوابه وعقابه ، وان يجعل من معايير هذا الثواب والعقاب ومن كمال البارى فى علمه وكماله فى عدله مقياسا متكاملا للخير والشر ، وتفسيرا كافيا لوجود الخير والشر ومناطا سليما للأخلاق •

كان هذا ممكنا لولا أن مقدرة الخيام العقليه من ناحية والايمانية من ناحية أخرى لم تسعفاه بالهداية ، فلم يقتنع الا بحقيقة واحدة هى ان الانسان اليوم حى وأنه غدا سيموت ، وانه قبل الحياة لم يكن وأنه بعد الموت لن يكون واليك اعتراف الخيام بقصوره عن ادراك أكثر من هذا اذ يقول :

قمت من جوف الأراضى ارتحل
وجلست اليوم فى عرش زحل
وحللت العقد الكبرى بها
غير كبراها التى تدعى الأجل

***

ذاك باب ليس لى حول حياله
أو قناع لا ترى العين خلاله
هذيان عنك أو عنى به
ثم تفنى حينما تفنى المقالة

فلما آمن بهذه الحقيقة وكفر بما عداها ، تبدت له الحياة فى صورة واحدة ، يصورها فيتزجيرالد بقوله :

يا حبيبى أترع الكأس وهات
أغرق الأمس وهول الآتيات
ما غد ؟! يا صاح قد أغدو غدا
ضمن آلاف السنين الماضيات

***

كان فيما ها هنا أغلى الأحبة
ساقهم ذا الدهر سوقا كالمذبة
شربوا كأسا وكأسا بعدها
ثم راحوا واستراحوا منذ حقبة

***

ثم ها نحن بدار عطلوها
نشرب الكأس التى كانوا سقوها
قد ركبناهم وهم تحت الثرى
ثم يطوينا الثرى كى يركبوها

***

فانعم اليوم بما فيه الهناء
قبل أن تنزل فى جب الخواء
يا ثرى قد ضمه هذا الثرى
لا طلى ! لا شدو شاد ! لا انتهاء !

***

صورة يتساوى فيها المؤمن والكافر ، والمتخلق والمتهتك ، والزاهد والفاتك العاكف على الملذات، اذ لا حساب ولا عقاب يفرق بين أهل الخير والعفه وأهل الفتك والمجون • واذا ما تساوى الفريقان فى العاقبة ، فالخسران المبين من نصيب من تركوا عاجلهم المضمون لأجل لن يكون :

قد تساوى المحتفى بالراهنات
والذى يرجو الجدا من قادمات
اذن الهاتف فى جنح الدجى
« لا جزاء اليوم ! أو بعد الممات ! »

***

انما نحن على الحق صفوف
من خيالات وأشباح تطوف
حول مصباح من الشمس اجتدى
ضوءه فى الليل ، أبداه العريف

***

عند هذا وتتولى الحيرة صاحبها ويستولى عليه الشك القاتل ، فلا هو ملحد فيستريح الى الالحاد، ولا هو مؤمن كامل الايمان راسخ اليقين فيستريح لعدالة الله وعلمه ويؤمن به مناطا للاخلاق، ويقتنع بالشر فتنة وامتحانا وضرورة من ضرورات الاخلاق على أى مذهب شاء • فلما تأرجح هكذا بين يأس الملحد ويقين المؤمن وضع نفسه موضع المخلوعة نفسه من جذورها ، وأصبح كالريشة فى مهب التيارات التى لا قبل له بها • عندئذ لا يجديه علمه شيئا وان اتسع ، لأن العلم لايغنى عن ثقة اليقين ، فالحياة وان طالت قصيرة ، وكل يوم ينقضى نفقده بغير أمل فى رجوع ، فاما ان نستفيد منه واما أن نكون فيه الخاسرين ، ومن أين للحريص أن يعلم سلفا أن ما يراهن عليه هو الكاسب ؟! حيرة واضطراب ، وحادى العباد لا يفتر ولا ينتظر ولا يدع الواحد يتمهل او يتأمل فى عقبى المصير ، والركب عميان ظلماء سروا فى اثر عميان :

لحظة يا صاح ، دعنى ها هنا
ارتشف من بئر أسرار الدنا –
ويح نفسى ، قد مضى الركب الى
حيث لا شىء ، ولا الحادى ونى

***

هذه الحالة يعلم علماء النفس أنها أثقل من أن تطاق الى أمد بعيد ، ولا بد للبنية من مخرج يخرجها منها ، والمخارج كثيرة ، كالجنون وفقدان الذاكرة والتحلل من العرف والقانون والخروج على المجتمع والدين ، الا أن المخرج الذى ارتضاه الخيام كان كأس الخمر ورغيف العيش وديوان الشعر وقينة تسقيه وتغنيه ، فيلهو بالشراب عن الدنيا ، ويتسلى بالغناء عن أصحاب الدنيا ويظل فى غيبوبته هذه المحبوبة الهادئة حتى تأتيه الغيبوبة المرهوبة فى آخر المطاف فيترك الدنيا غير اسف، وغير تارك فيها أحدا من الآسفين •

وغنى عن القول ان هذه الشخصية شىء غير خيام فارس القديم وغير فيتزجيرالد الحديث ، ولعلها مزاج بينهما كان من حق فيتزجيرالد ان يسميها أسما خاصا بها تتميز به كما تميز باسمه هاملت وكروزو وراسكولنيكوف ، ولكنه لم يفعل ، فخسر الأصالة وكسب الشهرة والسحر الشرقى اللذيذ •

سادسا : مختارات

ونسوق ها هنا مجموعة متتالية من رباعيات فيتزجيرالد ، هى الرباعيات الاثنتا عشرة فيما بين الثمانين والحادية والتسعين من آخر طبعاتها ، قمت بترجمتها شعرا محافظة للنص على موسيقاه ونسقه، وقد راعيت فيها أن تكون أقرب ما تكون الى الحرفية ، وحيثما لم يمكن الحرف كله امكن جله ، ولم نبتعد عن النص قيد أصبع ، وكل ما فعلناه هو حذف صفة أغنت عنها غيرها أو اضافة صفة تجرى مع النص فى سياق •

وقد وقع الاختيار على هذه الرباعيات لأسباب:
أولها أنها فى مجموعها تشبه أن تكون قصة متكاملة ، فهى بذلك تكون ذات طابع متميز بين الرباعيات يراد لذاته •

وثانيها أنها تظهر الى حد كبير مقدار

ما استحدث فيتزجيرالد فى رباعيات الخيام من بدع وثلثها أنها تلخص فلسفة خيام فيتزجيرالد تلخيصا واضحا بينا .

قال فيتزجيرالد :

ايه يا من بالمهاوى والفتون
عقت نهجا نحن فيه السالكون
انت قدرت قديما شرنا
ثم تدعوه الخطايا والمجون ؟!

ايه يا من صنعتنا من ذا التراب
وبرأت الصل فى دار الثواب
أعط للانسان غفرانا وخذ
كل ما أسود به الوجه اليباب

***

حين ولى رمضان الجوع سرا
بعد أن أزمع بينا واستقرا
رحت للفخار وحدى اجتلى
عنده جمعا من الصلصال كثرا

***

كن أنواعا : كبارا وصغارا
نمن أرضا أو توسدن الجدارا
كان منهن قئول مدرها
وسميع لم يحر لفظا جهارا

***

قال قدر : « ليس من لهو العبث
أن يصوغنى من هذا الخبث
ثم يعطونى حياة تمحى
كى أرى من غير شكل أو نبث »

***

ثم ثان قال : « ما طفل شقى
يحطم الكوب ومنه يستقى
والذى صاغ الأوانى كلها
لن يرى يحطمها من حنق »

***

ثم زمت لحظة تلك الشفاه
صاح قدر بعدها ـ ذل وشاه :
« انهم يلحون شكلى الملتوى
أى ذنب لى اذا اهتزت يداه ؟ » .

***

عندها قام اناء ذو لسان
صيرفى مثل صوفى يعانى
قال : « منذا القدر يا أهل النهى ؟
ويك، أم منذا الذى صاغ الأوانى؟! »

***

رد ثان : « قال بعض القوم زورا
ثم من ينذر بالنار القدورا
انتى شاهدت على كفيه . ـ بل
هو خير ، وسيملأ الكون نورا . »

***

همست احدى الأوانى للأناسى :
« ان طينى جف من طول التناسى ،
فاذا اترعتمونى بالطلى
ربما أبللت من سقم احتباسى »

***

بينما كن على هذا السمر
أشرق البدر الصغير المنتظر
فتصايحن : « أيا أختا اصعدى
كتف الحمال ثم ابكى القدر . »

***

آه ، هيا فابعثونى اليوم حيا
واغسلوا بالخمر جثمانى الفتيا
واحفروا مثواى فى بطن الثرى
تحت كرم ليس بالمهجور ... هيا »

أحمد ابراهيم الشريف